نصوص للتأمّل

عملا بقوله جلّ وعلا: ﴿ **يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ (البقرة، الآية 269)، وقول نبينا الكريم عليه أزكى الصلاة والسلام: "الحكمة ضالة المؤمن فأنّى وجدها فهو أحقُّ بها"، ألفّ فضيلة الشيخ **مولاي التهامي غيتاوي*** كتابا قيّما دوّن فيه بعض النصائح والوصايا موجهة إلى طالبي العلم والمعرفة من الشباب وقد سمى هذا الكتاب "كتاب الوصايا الجامعة والنافعة لطلاب الزوايا والمدارس والجامعة".

نورد فيما يلي الوصية الأولى التي استهل بها كتابه وعنوانها :

الدعوة إلى العمل واختيار الأصدقاء

أخي الطالب اعلم أن للصداقات الخاصة أثر عميق في توجيه النفس والعقل، ولها نتائج هامة فيما يصيب الجماعة كلها من تقدم أو تأخر ومن قلق أو اطمئنان وقد عني الإسلام بهذه الصلات التي تربطك بأشخاص يؤثرون فيك ويتأثرون بك ويقتربون من حياتك اقتراباً كثيرا خطيراً لأمد طويل.

إن هذه الصلات إن بدأت ونمت نبيلة خالصة تقبلها الله وباركها، وإن كانت رخيصة مهينة ردها في وجوه أصحابها. لقوله تعالى: ﴿**الْأَخِلَّاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ**﴾[1].

---

* عضو المجلس الإسلامي الأعلى، شيخ المدرسة القرآنية مالك بن أنس وإمام مسجد الحسنين أو قدم بأدرار.

1. سورة الزخرف، الآية 67.

إن الإسلام كما علمت دين تجمع وألفة ونزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليمه وهو لم يقم على الاستيحاش ولا دعا أبناءه إلى العزلة العامة والفرار من تكاليف الحياة ولا رسم رسالة المسلم في الأرض على أنها انقطاع في دير أو عبادة في صومعة كلا، فإن الدرجات العالية لم يعدها الله عز وجل لأمثال أولئك المنكمشين الضعاف قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[1].

لمن شرعت الجماعات ؟ وعلى من فرضت الجمعة ؟ ومن الذي يحمل أعباء الجهاد ويعين في أزماته الكالحة؟ إن ذالك كله يستلزم أمة توثقت فيها العلاقات الخاصة والعامة إلى حد بعيد ولذالك أجاب ابن عباس عند ما سئل مراراً عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل ولكنه لا يحضر الجمعة ولا الجماعات فقال: أخبروه أنه من أهل النار[2].

ذالك أن الإسلام شديد الحرص على أن تكون شعائره العظمى مناسبة يلتقي المسلمون عندها ليتعاونوا على أدائها ويستوحوا من جوها الطهور عواطف الود المصفى والإخلاص العميق.

وكلما ضخم العدد الذي ينتظم المسلم فيه مع إخوانه تكاثرت عليه بركات الله. وفي الحديث: "صلاة الرجل مع الرجل أزكى من صلاته وحده وصلاته مع الرجلين أزكى من صلاته مع الرجل وكلما كثرت فهو أحب إلى الله عز وجل[3]. وفي رواية أخرى: "صلاة الرجلين يؤم أحدهما صاحبه أزكى عند الله من صلاة أربعة تثرى، وصلاة أربعة أزكى عند الله من صلاة ثمانية تثرى، وصلاة ثمانية يؤمهم أحدهم أزكى عند الله من صلاة مائة تثرى[4].

---

1. رواه الترمذي.
2. رواه الترمذي.
3. رواه الإمام أحمد.
4. رواه الإمام الطبري.

وهذه السنن تشير إلى رغبة الإسلام في تكثير سواد المسلمين ورؤيتهم حشوداً متضاعفة، لا فرادى متقطعين، على أن أمر العزلة والاختلاط وما يتبعه من إنشاء الصلات وتكوين الصداقات يخضع لأحكام شتى.

فكل اعتزال عن الأمة يفوت جهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو يضعف من جانب الدفاع عن الإسلام أمام خصومه فهو جريمة ولا يقبل من صاحبه عذر إذ لا رهبانية في الإسلام..

والناس بعدئذ طبائع منهم الذي يهرع إلى المجامع الحافلة وسرعان ما يتصل بهذا وذاك، ويستأنس بتصفح الوجوه ومحادثة القريب والبعيد ومنهم من تزج به في الأحفال المائجة فإذا هو يقيم حول نفسه سوراً، يطل منه على الناس بحذر ويتوارى خلفه إن قصده قاصد، كلتا الطبيعيتين هداها الإسلام نهجا سويا فيقال للأول: "خالط الناس ودينك لا تهمله"، ويقال للآخر:"المؤمن هين لين إلف مألوف"، على أن الإسلام أوجب اعتزال الفتن فإذا اضطربت البلاد وتهارش أهلها على الدنيا وانتقضت عرا الفضائل فإن مقاطعة الفساد لون من استنكاره وذالك في حدود مراتب التغيير التي شرعها الله لخصوم المنكر من تغيير المنكر باليد فاللسان فالقلب أي أن اعتزال الفساد لا يقبل ممن يملك تغييره بلسانه فضلاً عن يده والمقاطعة سلاح استخدم في هذا العصر بحكمة، جربته الأمم المستضعفة مع عدوها القاهر، ومنزلة المقاطعة من أسلحة الكفاح الأخرى هي منزلة الاعتزال من أساليب الإصلاح الكثيرة أي أنها مهرب العجزة عندما لا يجدون وسيلة غير الفرار بدينهم فأما عند كثرة الوسائل التي يمكن بها إطفاء الفتن فالاعتزال —كما بينا — جريمة نكراء، وعلى ضوء هذا البيان تفهم قول رسول الله وقد سئل: أي الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال:"مؤمن يجاهد بنفسه وما له في سبيل الله

قيل : ثم من ؟ قال: رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه"[1].

ثم أن العزلة والاختلاط لا يمكن أن يكونا وصفين دائمين للإنسان فليقسم المسلم وقته بين الخلوة النافعة والاختلاط الحسن ليخرج من الحالين بما يصلح شأنه كله، وعلى هذا الأساس نتخير الأصحاب، ونرغب في الصدقات أو نزهدها، وأول شرائط الصحبة الكريمة أن تبرأ من الأغراض، وان تخلص لوجه الحق وأن تولد وتكبر في طريق الإيمان والإحسان، وهذا هو معنى الحب لله، إن الإنسان إذا رسخ في فؤاده اليقين وخالطت بشاشة الإيمان قلبه وأحس بحلاوته في مذاقه أصبح ينظر للأحياء قاطبة على ضوء العقيدة التي تمحص لها فهو يحب لمبدأ لا لشهوة، ويكره لمبدأ، لا لحرمان، وقد تتجمع القطعان على مورد عذب أو كدر، وقد يلتقي الناس على دنيا عارضة أو دائمة، وربما تأسست بينهم علاقات متينة، بيد أن هذا الضرب من التعارف والتواد لا يقاس بما ينشأ بين أصحاب المثل العليا من محبة وصفاء وتعاون وتفان، ولذالك احتفى الإسلام بمشاعر الصداقة النقية ورغب المؤمنين في إخلاصها لله وإبقائها لوجهه وجعل لها من جميل المثوبة ما هي له أهل:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله عز وجل: "المتحابون بجلالي في ظل عرشي، يوم لا ظل إلا ظلي"[2].

وعن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله، قالوا: يا رسول الله فخبرنا: من هم؟ قال هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، فو الله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور

---

1. رواه الإمام البخاري ومسلم.
2. رواه الإمام أحمد.

لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس وقرأ: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

والحب في الله لا يزعمه كل واحد ولا يصدق من كل دعي: فلا بد أن يعرف الإنسان ربه أولاً معرفة صحيحة ثم يغالي بهذه المعرفة حتى يرجع في نفسه ما عداها ثم ترقى هذه المعرفة إلى حب الله ذاته، وإيثار العمل له، وعندئذٍ يصدق على المرء إذا أحب أو كره أنه أحب لله كره لله، أما أن يعجب المرء بموهبة عظيم أو يستلطف سيرة آخر فيحبه فذالك لون آخر من الصداقة غير ما نحن بإزائه.

ولما كان الحب في الله خاتمة مراحل تسبقه في مراقي الإيمان وكانت ثمرته لا تبد وإلا عند من أنضجتهم حرارة الإخلاص، كان فيض هذا الحب دليل "كمال ونقاء يستحقان أجل الجزاء" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما من رجلين تحابا في الله بظهر الغيب إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حباً لصاحبه"[2]. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا آخى الرجل فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو فإنه أوصل للمحبة".

ولا شك أن لتجانس المزاج وللتفكير مدخل كبير في تأسيس الصداقات وتوثيق الأواصر وقد قيل : رب أخ لك لم تلده أمك. فقد يلتقي المرء في زحام الحياة بمن يحسن سرعة التجاوب معه والانجذاب إليه، وكأنما سبقت المعرفة به من سنين وهذا مصداق الحديث:" الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف"[3]، لكن هذه العاطفة يجب أن يحكمها سلطان العقيدة ونظام هذا السلطان الذي يستوحيه المؤمن في اتجاهات قلبه كلها فيجعلها يحب

1. سورة يونس، الآية 62.
2. رواه الإمام الطبري.
3. رواه الإمام البخاري.

في الله من لم يطلع له وجه لبعد الشقة أو لسبق الزمن ويكره كذالك من لم يخالطه في حضر أو سفر لا لشيء إلا لأنه يواد الأخيار ويكره الأشرار واتجاهات القلب على هذا النحو الخالص ترفع صاحبها درجات فوق منزلته .

عن أبي ذر: قلت يا رسول الله : الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم قال: "أنت يا أبا ذر مع من أحببت"[1].

ومن سنن الإسلام في الصداقة التزاور أنه يجب أن يكون خاليا من كل غرض خالص لوجه الله، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجل زار أخا له في قرية فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه قال: أين تريد ؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية قال: هل لك عليه من نعمة تربها قال: لا غير أني أحببته في الله تعالى قال: "فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه[2]. إن هذه الخطوات غالية إنها كخطى المجاهدين في سبيل الله تحظى بأجل الثواب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عاد مريضا أو زار أخا له في الله ناداه مناد بأن طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلا"[3] وقال: "ما من عبد أتى أخاه يزوره في الله إلا ناداه مناد من السماء أن طبت وطابت لك الجنة وإلا قال الله في ملكوت عرشه: عبدي زار في وعلي قراه فلم يرض له بثواب دون الجنة"[4].

والمسلم وإن كان يحب النفع للناس كافة فهو لنفع أصدقائه أحب ولما يصلهم من خير أفراح ولا بأس إن وجد فضلا أن يذكر منه

---

1. رواه الإمام الترمذي.
2. رواه الإمام البخاري.
3. رواه الإمام أبو داوود.
4. رواه الإمام مسلم.

أصحابه، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، وقد استحب رسول الله تبادل الهدايا بين الأصدقاء فقال: "تهادوا فإن الهدية تذهب وحر[2] الصدر"[3].

وعن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل الهدية ويثيب عليها[4].

على أن هذا الأدب العالي إذا خرج به التكلف عن حدوده أصبح مكروها فإن الإسلام قام على محاربة التصنع وإشاعة البساطة وكل مسلك ينطوي على الإحراج والمداهنة فالإسلام منه بريء إنما يهدف الإسلام جوهرها وأن يجعل منها وسيلة لتيسير الحياة وتخفيف متاعبها: خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره[5].

إن الإسلام أباح للشخص أن يأكل من طعام صديقه كما يأكل من طعام والديه وأخوته والأقربين منه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6] ولا غرو فعقد الصداقة كبير القيمة جليل الأثر حتى إنه ليكون مظنة النجدة في الأزمات الطاحنة ولو كانت هذه الأزمات النجاة

1. سورة البقرة، الآية 237.
2. حر الصدر : غشه ووسوسه.
3. رواه الإمام الترمذي.
4. رواه الإمام البزا.
5. رواه الإمام الحاكم.
6. سورة النور، الآية 61.

من عذاب جهنم قال تعالى في وصف حال المشركين حين يقاسون العذاب: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾[1]

ولما يرتبط بهذه الصداقات من حقوق عظام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي".

وقلت ! أخ قالوا: أخ من قرابة ؟ فقلت لهم: إن بالآم الشكور أقارب صديقي في حزمي وعزمي ومذهبي وإن باعدتنا في الأصول المناسب.

1. سورة الشعراء، الآية 97.